نظرة الإسلام إلى الأديان السماوية الأخرى

د. عائشة البشير علي الأسطى

كلية التربية أبي عيسى
جامعة الزاوية

الملخَّص:

القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام ، لذلك أشرنا إلى ما ورد فيه عن الديانات الأخرى. الإسلام في القرآن هو الدعوة الخالصة إلى الإيمان والخضوع والطاعة والامتثال لله وحده وأحكامه. دعا الإسلام إليها الأنبياء والمرسلين أجمع بلا استثناء ، فالإسلام دين أتى به الأنبياء والمرسلين من الله ، ودعوا الناس إلى الإسلام سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وهتفوا به ، وينسب إليها كل من أتباعهم.

جمع القرآن الكريم أديان الرسل في آية قال الله تعالى: قد أمر لك من الدين ما أوجب على نوح وما أنزلنا عليك [يا محمد] ، وما أمرنا به إبراهيم وعلى. موسى وعيسى – ليؤسسوا الدين ولا ينقسموا فيه. ويصعب على من يشرك الآخرين بالله ما تدعوهم إليه. الله يختار لنفسه من يشاء ويهدي إليه من رجع إليه.

يعترف الإسلام بوجود كل الأديان ، أفراداً ودولاً ، فيقول الله تعالى: فإليك دينك وديني بالنسبة لي. ويقول الله تعالى: لقد شرعنا لكل واحد منكم شرعًا وأسلوبًا. لو شاء الله ليجعلك أمة واحدة [متحدة في الدين] ، ولكن [قصد] أن يختبرك في ما أعطاك ؛ لذا تسابقوا إلى [كل ما هو] جيد. والله مردودكم جميعاً ، ويبلغكم بما كنتم تختلفون فيه. إذن لا سبيل مع غير المسلمين إلا الدعوة بالحكمة والوعظ الصالح والحجج بأفضل الطرق والمعاملة على أساس العدل.

موقف الإسلام من الديانات الحالية الموجودة اليوم أنها تحتوي على ما هو صحيح وأنزل به الله ، وما لم ينزل به الله ، ابتدعها أصحابها لأنفسهم وفق رغباتهم. فالصحيح من

تعليماتهم أن القرآن يؤكده ويؤيده لما تبقى من أجزائه الأصلية. هذا هو الموقف من الإنصاف والبصيرة الذي يتطلب من الشخص عدم قبول أي أمر تعسفيًا ، أو إنكاره بشكل تعسفي ، وإبداء البصيرة والأدلة دائمًا في قبوله أو رفضه.

ABSRTACT:

The Holy Qur'an is the first source of Islam, so we referred to what was mentioned in it about other religions. Islam, in Qur'anic meaning, is the pure call to faith, submission, obedience, and compliance with God alone and His rulings. Islam called to it the prophets and messengers as a whole without any exceptions, so Islam is a religion brought by prophets and messengers from God, and they called people to Islam for their happiness in this world and the hereafter, and they cheered it on, and each of their followers attributed to it.

The Holy Qur'an collected messengers' religions in a verse, Allah Says: (He has ordained for you of religion what He enjoined upon Noah and that which We have revealed to you, [O Muḥammad], and what We enjoined upon Abraham and Moses and Jesus - to establish the religion and not be divided therein. Difficult for those who associate others with Allāh is that to which you invite them. Allāh chooses for Himself whom He wills and guides to Himself whoever turns back [to Him])

Islam recognizes the existence of all religions, individuals and states, Allah says: (For you is your religion, and for me is my religion) And Allah says: (To each of you We prescribed a law and a method. Had Allāh willed, He would have made you one nation [united in religion], but [He intended] to test you in what He has given you; so race to [all that is] good. To Allāh is your return all together, and He will [then] inform you concerning that over which you used to differ.) So, there is no way with non-Muslims except to call with wisdom, good exhortation, argument in the best way, and treatment based on justice.

The position of Islam towards the present religions that exist today is that they contain what is correct and revealed by God, and what is not revealed by God, invented by their owners of themselves following their desires. So what is correct from their instructions, the Qur'an confirms it and supports it for what remains of its original

parts. This is the position of fairness and insight that requires a person not to accept any matter arbitrarily, nor to deny it arbitrarily, and to always issue with insight and evidence in accepting or rejecting it.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وبعد،،،

فإن الله عز وجل دعا المسلمين في كتابه العزيز إلى الحوار مع الآخر مهما كان هذا الآخر، ووجهه من خلال آيات كثيرة إلى كيفية هذا الحوار، حتى ولو كان مع المخالفين والمعاندين، وقد أعطانا رب العزة نموذجا مهما لهذه القاعدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ {العنكبوت، الآية 46}. وقال تعالى: ﴿لَوْكَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ {الأنبياء، الآية: 22}. وهو حواره وهو رب العالمين، عز وجل مع إبليس– العاصي والمعاند والكافر– بل إن الله عز وجل استجاب لدعاه وأنظره إلى يوم يبعثون.

وعندما نستعرض سير الأنبياء والمرسلين، نجد أن هذا المبدأ هو أساس مهم في أسلوب دعوتهم، فقد لبث نوح عليه السلام الف سنة إلا خمسين، وهو يحاور قومه ويجادلهم، كما في قوله تعالى على لسان قوم نوح ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ {هود، الآية: 32}. وإبراهيم– عليه السلام –حاور النمرود حواراً يقوم على الحجة والبرهان، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ {البقرة، الآية: 258}.

ورسولنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم، كان مثالً حياً في التعامل الإنساني والحوار مع غير المسلمين، فقد كان –عليه الصلاة والسلام– يقيم منهجاً يعلم من خلاله أمته أن الآخر موجود، ولا بد من التعامل معه، وأولى مبادئ التعامل هو الحوار والجدال المنطقي مع أصحاب الديانات الأخرى السابقة على الإسلام، خاصة اليهود والنصارى.

فالرسول صلى الله عليه وسلم حاور المشركين في مكة، وجاءت آيات قرآنية ترد على شبه المشركين في الله واليوم الآخر، وبعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة،

كان من الواضح أن تعامل النبي عليه الصلاة والسلام مع اليهود واعتبارهم مواطنين في الدولة الإسلامية، دليلاً على اعتراف الإسلام بوجود الديانات الأخرى في مجتمعه والمجتمعات الأخرى.

ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من نزول الآيات القرآنية التي تبين وتوضح حقيقة الدين الصحيح في رسالتي موسى وعيسى –عليهما السلام–، وكانت هناك وقفات قرآنية مع عقائد هؤلاء تدعوهم إلى الكلمة السواء الموصلة إلى المراجعة والتفكير ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾ {آل عمران الآية: 64}.

واستمر المسلمون يسيرون على هذا النهج، وقامت حضارة الإسلام تعترف بالآخر من غير المسلمين ولا تنكر وجودهم، ولهذا عاش غير المسلمين في أمان واطمئنان داخل المجتمعات الإسلامية، وظهرت الحوارات والمناظرات والردود في كتب وموسوعات كتبها علماء مسلمون عن أهل الديانات الأخرى وعقائدها وشرائعها، بكل موضوعية وأمانة وبدون اجتراء أو ظلم، وهذا الكم الكبير من كتب الملل والنحل، لم يكن ليتم لو لا أن هؤلاء العلماء قد عرفوا هذه الديانات عن كتب، فدرسوها وحللوها، مما جعلهم روادا في دراسة الأديان.

إشكالية البحث:

إنَ هذه الدراسة تحاول أن تبحث بالدراسة والتحليل بعض الإشكاليات والتي تتمثل في:–

1. موقف الإسلام من الأديان السابقة.
2. تسميت جميع الأديان السماوية السابقة بالإسلام.
3. تصديق القرآن الكريم لكتب السماوية السابقة وهيمنة عليها.

المنهج المتبع في الدراسة:

هو المنهج تحليلي مقارن، لتحليل ومقارنة بعض الآيات القرآنية، و الأفكار الواردة في سياق البحث. ولقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة وهي كالآتي:

خطة البحث:

المحور الأول:

أولاً: منزلة الأديان السابقة في الإسلام.

ثانياً: الاسلام اسم لدين الانبياء اجمعين.

المحور الثاني:

أولاً: علاقة الإسلام بالأديان الأخرى من نظرة عامة.

ثانياً: علاقة الإسلام بالأديان الأخرى من نظرة العملية.

المحور الثالث: تصديق القرآن للكتب السماوية الأخرى وهيمنته عليها.

أولاً: تصديق القرآن للكتب السماوية السابقة.

ثانياً: هيمنة القرآن على الكتب السماوية السابقة.

إضافة إلى ذلك خاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ومن خلال هذا الجهد المتواضع عشت مع موضوعي كما لم اتناول دراسة من قبل، وأردت به خدمة الدين أولاً وأخيراً، والى جانب ذلك إبراز الجانب المهم للإسلام ونظرته إلى الأديان السماوية الأخرى، وأدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه، والله من وراء القصد، والله يهدي إلى سواء السبيل.

المحور الأول

أولاً- منزلة الأديان السابقة في القرآن:

إن المذكور في القرآن في كثير من المواضع أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الانبياء، مع أخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه[1]. فقال تعالى: ﴿الم۞ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾[4].

لقد اخص الله عز وجل مكانة عظيمة للأديان السماوية السابقة في القرآن، حيث قال تعالى في كتابه العزيز ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ۞ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ۞ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ۞ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[5] وفي هذه الآيات دلالة قاطعة على مكانة وتكريم الأديان السابقة في القرآن، حيث قال ومعنى لا نفرق بين أحد من الاديان، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى...[6]

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض، وبأن المسلمين مقرون بنبوة موسى، وعيسى، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء –عليهم السلام–، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي أرسله الله، وهذا أصل دين المسلمين، فمن كفر بنبي واحد، فهو –عندهم– كافر، بل من سب نبياً من الأنبياء فهو –عندهم– كافر مباح الدم[7]، كما قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ۞ فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[8]

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[9]وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً۞ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا۞ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[10]

لقد ذم الله تعالى المفرق بين الرسل بأن يؤمن ببعض دون البعض، وبين أنه فضل بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾[11]. وبين أنه فضل بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[12]

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار، وإن كان مرتداً استتيب فإن تاب وإلا قتل.

ووضع الله القتل عقوبة لمن سب نبياً واحداً من الأنبياء باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبياً من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد(ﷺ) وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف، ومالم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمداً أخبر به –صلى الله عليهم أجمعين– ولكن لا يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق، ومالم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد(ﷺ) وبهذا أمرهم المسيح (عليه السلام) فقال: "الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده، فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه"[13]

ثانياً: الاسلام اسم لدين الانبياء اجمعين

ويعد القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام، لذا يذكر هنا ما ورد فيه عن الأديان الأخرى، فالإسلام بالمعنى القرآني، هو الدعوة الخالصة الي الأيمان والخضوع والانقياد والاذعان والامتثال لله وحده ولأحكامها، وما دعا إليه الانبياء والمرسلين جمعاء من غير استثناء فالإسلام اسم لدين جاء به الانبياء والرسل من عند الله ودعوا إليه الناس لسعادتهم في الدنيا والاخرة، وانتسب إليه كل من اتباعهم فهذا نوح يقول لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[14] وإبراهيم ويعقوب يوصيا ببنيهما، قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[15]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[16]. وقال الله حكاية عن ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[17] وموسى يقول لقومه في الآية الكريمة ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[18]

والحواريون يقول لعيسى قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[19] وإن فريقاً من اهل الكتاب حين سمعوا القرآن فقالوا: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[20]. وبه أمر الله الناس جميعاً في قوله تعالى:- ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.[21] فكل الأنبياء وكل أتباعهم الصادقين سمّاهم القرآن الكريم باسم واحد:(المسلمين)، وقد جمع القرآن دين الأنبياء في ايه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[22].

يتبين من هذه الآيات أن أنبياء الله ورسله أتوا بدين واحدٍ إلهي هدفه، سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، وهذا الدين الإلهي سماه الله الإسلام، وإنما الاختلاف في الشرائع بحسب طبيعة كل أمه وما يناسبها قال سبحانه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[23]، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: فيه "إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد"، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي(ﷺ) قال: (نحن معاشر الأنبياء إِخْوَة لِعَلاَّت، ديننا واحد)[24] يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول ارسله وضمنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[25]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[26]. وأما الشرائع فمختلفة في الاوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، مع اختلاف بسيط في الخفة والشد فيما بينها، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتاده قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[27] يقول: سبيلا وسنة، والسنن مختلفة: هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان الشريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل[28].

فالإسلام إذاً شعار ورمز يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى أن جاء القرآن وجمع القضايا كلها في قضية واحدة، وجهها إلى البشرية جمعها، وبين لهم فيها أنه ما شرع لهم ديناً جديداً، إنما هو دين الأنبياء كلهم الدين جاءوا من قبل. وإليه أشار النبي الخاتم محمد(ﷺ) من خلال مثال نطق به فقال "إنّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبَياء مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بنَبي بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْعَلهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَة، فَجَعَلَ النَّاسُ، يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِّيينَ".[29] أن القرآن بعد ما ذكر قصص الأنبياء واستجابة أتباعهم ينظم الأنبياء في سلك واحد، ويجعلهم جميعاً أمة واحدة، لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[30]. فالإسلام بهذا المعنى لا يختلف عن الأديان الأخرى، وإنما يكون معها وحدة منسجمة متآلفة لا تناقض بينها ولا تضارب. يقول درّاز[31]: "الإسلام في لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل اتباع الأنبياء"[32].

فللدين معنيان، معنى يشترك فيه الأنبياء والمرسلين أجمعين ومعنى تختلف فيه الأديان، والمعنى المشترك هو التوجه الكامل والدعوة الخالصة إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، والانقياد والإذعان لله وحده ولأحكامه، وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[33]. والذي أريدْ هنا في هذا البحث هو الإسلام كمصطلح، الإسلام الذي له عرف الناس مدلول محدد، ومفهوم معين، وهو مجموعة الأحكام العملية، والشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد(صلى الله عليه وسلم) أو التي استنبطت مما جاء به. وهناك يحتاج الإنسان إلى معرفة موقف الإسلام من الأديان الأخرى[34].

المحور الثاني

أولاً: علاقة الإسلام بالأديان الأخرى من نظرة عامة:

اكّدت الدعوة القرآنية منذ بداية نزول الوحي أن الرسالة الإسلامية رسالة عالمية، انطلقت بأمر الله تعالي، من البيئة الصغيرة التي كان يعيش فيها قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[35]. إلى المحيط الخارجي الذي يضم شبه الجزيرة العربية: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[36] لتعم مشارق الأرض ومغاربها، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[37]، ولم تضع أي حدود بينها وبين العالم الخارجي، فلم يكن الجنس أو اللون أو الدين حاجزاً أمام انتشارها، وكتب السيرة والتاريخ الإسلامي أكبر شاهد على هذا الأمر.

وبذلك وقف الإسلام موقف القوة أمام أهل الكتاب، فدعاهم جميعا إلى قبول الحق والإذعان له، وإلى نبذ وتركه العناد، وفق قاعدة اللقاء والتقارب المبنية على الأسس التوحيدية التي دعا إليها كل الأنبياء والمسطرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[38] كما دعا إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن، حتى لا يؤجج في قلوبهم العصبية والعناد والحقد، خاصة أن رسالة الإسلام جاءت سالبة لكل مناصب الزعامة الدينية التي كانت لهم، وهي مهمة تنسجم ومنهج القرآن في الجدل والمناظرة[39].

لقد كان القرآن الكريم كتاباً مفتوحاً أمام الآخر، لا يمنع خصومه من البحث فيه لإيجاد أي اخلاف أو تناقض بين آياته، واكتشافه بأسلوب المتحدي القوي، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[40] بل أكثر من ذلك جعل عدم التدبر ناتجاً عن انسداد الفكر وقصور العقل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[41]. فكان بذلك كتاب جدل بامتياز، ينهج منهج المناظر القوي، فيحدد أولً القضايا والمواضيع التي ينوي معالجتها، ثم يبدأ بعرضها قضية، ليقدم في النهاية الأدلة والبراهين على بطلانها أو صوابها.

فقدم نظرة جديدة إلى الآخر، اختلف عن نظرة باقي الكتب السماوية من توراة وإنجيل. فحضور الأخر أو المخالف فيه حضور قوي، وهي حقيقة أساسية، لا يغفلها دارس منصف للكتب السماوية، تؤكد الاختلاف الكبير الذي بين القرآن وغيره من القرآن نتيجة بديهية، يتوصل إليها الباحث خلال القراءة الأولية لهذه النصوص، "فليس في التوراة ولا في

الإنجيل أكثر من إشارات عارضة إلى الملحدين الذين ينكرون وجود الله، لأن أنبياء التوراة والإنجيل كانوا يخاطبون أناساً يؤمنون بإله بني إسرائيل، ولا يشكون في وجوده، أما القرآن فقد كان يخاطب قوماً ينكرون، وأقواماً يشركون، وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة، وكانت دعوته للناس كافة من أنباء العصر الذي نزل فيه، وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم".[42] أضف إلى ذلك أن الكتب الأخرى في ذكرها للمخالفين لا تسعى إلى دعوتهم للإيمان بها، وإنما ذكرتهم من أجل تحذير بني إسرائيل من التشبه بهم، فلم تحتاج إلى نهج أسلوب الإقناع، على عكس المنهج القرآني الذي من أسمى أهدافه هداية البشر إلى دين الإسلام، ووصول الناس إلى الحقيقة بالطريقة التي تعمق الإيمان في نفوسهم، لذلك انطلق الإسلام من قاعدة أصيلة في تفكيره، وهي عدّ العقل قوة صالحة للحكم على الأشياء، وميزاناً يزن به صحة القضايا وفسادها. ولإيمانه بأن العقل هو الرابط المشترك بين جميع البشر جعله الحكم والمرجع للفصل في كل النزعات العقدية، لذلك نجد دعوة القرآن موجهة لذوي الألباب من دون غيرهم، فوصف كل مغيب لعقله بالضلال الذي لا يختلف عن ضلال الدواب[43] قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[44].

ومن جهة أخرى يتحدث القرآن عن علاقة الإسلام بالأديان الأخرى، فهو من ناحية يصدق لما بين يديها من كتبهم، ومن ناحية أخرى يصلح بما قد أضافوا فيها، وينكر التحريفات التي قاموا بها في كتبهم، إذاً هناك مرحلتان مرت بهما هذه الأديان: المرحلة الأولى: الأديان في هذه المرحلة لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان، ولا بيد الإنسان. المرحلة الثانية: الأديان بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شيء من التطور.

أما في المرحلة الأولى: القرآن بخير أن كل رسول أرسل، وكل كتاب أنزل، وقد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله: فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة[45].

ففي المرحلة الأولى الإسلام لا يختلف في الجوهر والماهية وجذر الأصول والمبادئ العامة، التي تدعو إلى التوحيد الإلهي، والإيمان باليوم الآخر، والمطالبة بالتزام الأوامر الإلهية، والقواعد الأخلاقية، والإمساك عن الفواحش والقبائح، ومقاومة المنكرات والحرص على توفير الخير والسعادة للبشرية من غير استثناء. فكل رسول وكل كتاب قد

جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله: فالإنجيل يصدق ويؤيد التوراة، والقرآن يصدق ويؤيد الإنجيل والتوراة ولكل ما بين يدية من الكتب: قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[46] وفي هذه الآيات المباركة.

التقرير للكتب التي أنزلت من قبل ثم أنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، أي أنزل بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه "ومهيمناً عليه"

يقول الطبري: "يقول الله أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مصدّقاً للكتب قبله، وشهيداً عليها أنها حق من عند الله، أمينا عليها، حافظاً لها"[47].

ويقول الجصاص: "والمعنى فيه، أنه أمين عليه ينقل إلينا ما في الكتب المتقدمة على حقيقته من غير تحريف ولا زيادة ولا نقصان لأن الأمين على الشيء مصدق عليه وكذلك الشاهد".[48]

ويقول الرازي: "وإذا كان كذلك كانت شهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبدا، فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبداً"[49].

ويقول أبن عاشور: "وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع مقرر له من كل حكم كانت مصلحته كلية لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم و الأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق، أي محقق ومقرر، وهو أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة من كل ما كانت مصالحة جزئية مؤقتة مراعي فيها أحوال أقوام خاصة".[50]

يقول الطنطاوي: "والمعنى: لقد أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل، وجلعنا (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ)

أي: مؤيدا لما في تلك الكتب التي تقدمتها: من دعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق، وجعلناه كذلك (مهيمناً عليها) أي: أميناً ورقيباً وحاكماً عليها"[51]

التصديق والتحكيم: إن علاقة الإسلام في هذه المرحلة بالأديان الأخرى علاقة تصديق وتأكيد وتحكيم كلي وكامل. ولكن هل المراد بها ما يتبادر إليه الذهن بأن المراد بالتصديق بين الكتب الإلهية أن يكون القرآن الكريم تجديد للكتب التي سبقته وتذكير بها، فلا يغير فيها معنى، ولا تبدل حكماً، لأن التصديق لا يكون إلا بالتأييد ما قبل، ولا يقال: إنها تصدق بينما هي تبدل وتعدل؟ وإذا كان من قضية التصديق بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئاً من المتقدم فهل الواقع هو ذلك؟ ولكن الواقع ليس كذلك، لأن الإنجيل قد جاء بتعديل بعض أحكام التوراة، كما صرح الله حكاية عن عيسى أنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم فقال: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُون﴾[52] (رسولاً) و(ومُصَدِّقاً) من المنصوبات المتقدمة، والعامل مضمر على إرادة القول. أي: أرسلت رسولاً بأني قد جئتكم، ومصدقاً لما بين يدي.[53]

ولشريعة التوراة التي نزلت على موسى، ولا يبح لكم بأمر الله بعض ما حُرِّم عليكم من قبل، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة، كما قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[54] فرسول الله جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

يقول: محمد عبد درّاز، لكي يفرق بينهما قيل في الآية الأولى والثانية المذكورتين أعلاهما، لابد أن يفهم معناهما، فلم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر، فكل الشرائع

السماوية صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

1. تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره.
2. وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية.

وذلك أن الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات:

أ. "تشريعات خالدة "لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع" كالوصايا العشرة"[55] ونحوها.

فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله وتأكيداً له.

ب. وتشريعات موقوته، بآجال طويلة أو قصيرة. فهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة، وهذا –والله اعلم– هو تأويل قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[56] ولو لا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري:

- عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها.
- عنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقي اتجاها إلى المستقبل أفضل وأكمل[57].

وأما في المرحلة الثانية بعد أن اطال الأمد على هذه الشرائع، وهي مرحلة التي نعيش فيها، فلا يعترف بها الإسلام، وإنما تعارضها معارضة تامة وتخالفها مخالفةً باتَّة، لما وقع فيها من التحريف والتغيير والتبديل بسبب التأويلات الضالة والمضلة، أوَّلها رؤساء هذه الأديان والكهنة القائمون عليها لمصالحهم الدنيوية المبنية على هوى النفس، فدور الإسلام هنا دور المصحح للأخطاء والنافي للتحريف، والمزيل للزوائد، بل دور الناسخ لكل دين سابق، سواء أكان صحيحاً أم مبدلاً. ومن هنا نرى مظهر الصفة الثانية وهي صفة الهيمنة كما أعلن أنه جاء أيضاً "مهيمناً" على تلك الكتب. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[58]. ألا يكتفي

الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه –فوق ذلك– أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق. وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها"[59]

ويقف الإسلام من الديانات الحاضرة الآن موقفاً –جديا– فهو يؤيد ما هو صحيح منزَّل من الله، ويرفض بشدة ما تم تحريفه وهو غير منزّل من الله بحيث اخترعت هذه الأديان من قبل أصحابها اتباعاً لهواهم، فما هو صحيح من تعليماتهم فالقرآن يصدقها ويؤيدها لما بقي من أجزائها الأصلية، ويصحح لما أطر عليها من البدع والإضافات الغربية عنها، وهذا هو موقف الإنصاف والتبصير الذي يطلب من الإنسان أن لا يقبل أي أمر جزافاً، ولا ينكره جزافاً، وأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة في قبوله ورده.

ويقول درّاز في هذا الصدد: "وليس خاصاً بموقفها من الديانات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة، وكل شريعة وملة، حتى الديانات الوثنية، ترى القرآن يحللها ويفصلها، فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة، وينحي ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة"[60].

ثانياً: علاقة الإسلام بالأديان الأخرى من نظرة عملية

بعدما اتضح أن الإسلام لا يقر الصورة الحالية لهذه الأديان، فما هو موقفه من الوجهة العملية؟ فهل يقف منها موقف السكوت والإغضاء عنها اكتفاءاً بالأمر الواقع؟ أم يقف موقف المحارب المقاتل، لا يهدأ له بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

فالإسلام عند البعض دين عنصري، والمسلم أناني، والإسلام هو الدافع لهذه العنصرية والأنانية، ولا يعنيه غيره ممن لا يؤمن كإيمانه، ضل أم أهتدى، سعد أم شقي، ذهب إلى الجنة أم إلى النار. وعند البعض الإسلام يريد أن يسلط نفسه على الناس إكراهاً بالقوة والغلبة، والشريعة تأمرهم بضرب الكافرين أينما وجدوهم. يقول: المونيسنيور كولي كولي[61]: في كتابه "البحث عن الدين" برز في الشرق عدوٌ جديد هو الإسلام الذي أُسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيفَ في أيدي الذين تبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق؛ ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة؛ وبعد قليلٍ أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانية فريسةً له، حتى هدّد إيطاليا، وعمَّ الاجتياحُ نصفَ فرنسا، ولقد أصيبت المدينة"[62]،

مّا(سفاري)[63] الذي ترجم معاني القرآن سنة(1752م)، فيعتقد(أنّ محمّداً لجأ إلى السلطة الإلهية لكي يدفع الناس إلى قبول هذهِ العقيدة، ومن هنا طالب بالإيمان به كرسول الله، وقد كان هذا اعتقاداً مزيّفاً أملته الحاجة العقليّة...). وبنفس المنطق يقول(جويليان) في كتابه(تاريخ فرنسا) (إنّ محمّداً، مؤسّس دين المسلمين، قد أمر أتباعه أنْ يُخضعوا العالم وأنْ يبدلّوا جميع الأديان بدينه هو،....ماذا كان حال العالم لو أنّ العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنّا مسلمين كالجزائريّين والمراكشيّين)[64].

ولكن حينما يُنظر إلى الواقع ويُقرأ القرآن يتضح أمام القارئ أن هؤلاء الذين صوروا الإسلام بهذه الصورة لم يصيبوا لتصويرهم لمعرفة كنه الإسلام، فليس الإسلام ضعيفا، أو منعزلاً ولا منطوياً على نفسه، كما يزعم الأقلون الذين لا اهتمام لهم بالمناهج العلمية، لأن الدعوة إلى الحق ركن حقيقي بل أصيل من أركان الإسلام.

والحيوية في هذه الدعوة واجبة بل فريضة مستمرة في سائر الأزمنة والأمكنة. أمر الله نبيه بتبليغ كلامه، وبذل جهده في هذا التبليغ دليل واضح على منهج الإسلام في الدعوة. يقول الله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[65]، أي بالقرآن. يقول الطبري في تفسيره: "فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم، فنذيقك ضعف الحياة وضعف الممات، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهاداً كبيراً، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويذعنوا للعمل بجميعه طوعاً وكرها"[66]. وفي نفس الوقت القرآن يحرض المؤمنين على هذه الدعوة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[67]. وهي دعوة بالقول والعمل يقول السيد قطب:" كلمة دعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال على الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء. ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات. فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ. وعلى الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض، أو بسوء الأدب، أو بالتبجح في الإنكار، فهو إنما يتقدم بالحسنة. فهو في المقام الرفيع، وغيره يتقدم بالسيئة. بل يجعل الفلاح والنجاة وقفاً على هؤلاء الدعاة".[68] وقد جعل الله الفلاح والنجاة موقوفاً على هؤلاء الدعاة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[69]. وقد نزل سورة كاملة في هذا، ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[70]. فليس من طبيعة الإسلام أن يفرض نفسه على الناس بل يعطيهم الحرية الكاملة في اختبارهم بل يحفظ حقوقهم[71].

المحور الثالث: تصديق القرآن للكتب السماوية الأخرى وهيمنته عليها.

كيف يكون القرآن مصدقاً للكتب السماوية السابقة والمهيمن عليها في نفس الوقت؟

كثيراً من المستشرقين المسيحيين يعدون هذا الموقف القرآني موقفاً متناقضاً، ويجعلون هذا الأمر ذريعة لادعاء أن الكتب السماوية السابقة كتب سليمة من التحريف والنسخ، وأن ذلك يستتبع وجوب العمل بهذه الكتب كالقرآن على السواء، وقد وضعوا في هذا المعنى بعض الكتب والرسائل كرسالة "أبحاث المجتهدين في الخلاف بين النصارى والمسلمين " ورسالة بولس الراهب أسقف صيدا"[72].

من هنا كان لزاماً علينا، ونحن ندرس منهج القرآن في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى أن نبين المعنى الصحيح للتصديق القرآني وهيمنته على الكتب السماوية السابقة للرد على افتراءات هؤلاء، ونظهر أنهم حملُّوا الآيات القرآنية ما لا تحتمل، وأراد بذلك تحريف كلام الله عن مواضعه، كما فعلوا في كتبهم.

أولاً- تصديق القرآن للكتب السماوية السابقة:

وردت في القرآن آيات كثيرة تفيد تصديق كتاب الله لما سبق من الكتب المنزلة من قبل، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿الم۞ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[73]. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[74] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[75] وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي وصف فيها القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من كتب الله.

والتصديق المراد في هذه الآيات لا يعني بتاتاً أن الكتب السماوية في صيغتها الحالية كتب صادقة صحيحة، وإنما المراد من ذلك: أن الوحي المنزل على محمد(ﷺ) صحيح وممكن، مثل موسى وعيسى عليهما السلام، يقول الله(ﷻ) ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ۞ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[76] ويشهد على ذلك أيضاً قول الله (ﷻ) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[77] فالتصديق تصديق بأصل الوحي وبالرسالات السابقة غلى الصورة الصحيحة التي نزلت بها، والتي جاء ذكر الرسول(ﷺ) ومدحه فيها، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[78]. التصديق في هذه الآيات يعني موافقة القرآن لهذه الكتب في مقاصد الدين الإلهي وأصوله التي لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، وذلك بموافقتها في الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، وفي أصول الشريعة من صلاة وصيام وزكاة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[79] فأصول العقيدة والشريعة واحدة في جميع الكتب السماوية، لا يختلف فيها كتاب لا حق عن كتاب سابق، ويبقى اختلافاً في تفاصيلها العملية اختلافاً يتلاءم مع زمن كل منها ومكانه، مصداقاً لقوله تعالى(ﷻ) ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[80]

يتمثل تصديق القرآن لما سبق من الكتب في موافقته لها في الدعوة إلى الفضائل والترغيب فيها والترهيب من الرذائل والتنفير منها، فكل كتب الله المنزلة على الرسل أمرت بالأخلاق، ونهت عن الظلم، والخيانة، والكذب والغدر، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وكل الرذائل التي تتأفف منها الأنفس الطيبة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[81] من أنواع التصديق أيضاً كون القرآن جاء جامعاً لما تفرق في الكتب السابقة من فضائل، وصاغها في قالب جديد، أنقذ به أصول الدين التي تبدلت بسبب التحريف والتغيير الذي أصابها على يد الأحبار والرهبان وغيرهم من المتلاعبين بالكتب.

والقرآن خاتم الكتب السماوية وهو مجدداً لدعوة تلك الكتب، مؤكداً وحدتها في جوهر الدعوة إلى عبادة الله، فكان خلاصة كاملة للرسالات الأولى، وللنصائح التي بذلت للإنسانية منذ فجر وجودها، إذ تراكمت فيه المعارف والحكم البالغة، وهو بهذه المبادئ مجمع الحقائق الثابتة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[82]. وقد تحدى القرآن على لسان النبي (ﷺ) أهل الكتاب لما قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِين﴾[83]. فالتوراة والإنجيل لا يمكن أن يخالفا القرآن، لأن أصل الكتب السماوية واحد. والنبي (ﷺ) الخاتم مجدد لهذا الدين الواحد ومقيم لما هدم منه، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِين﴾[84].

مما سبق يتبين لنا معنى تصديق القرآن لما تقدمه من الكتب السماوية، ومن هنا نرى أن هذا التصديق لا يفيد من قريب أو من بعيد أعداء الإسلام وخصومه فيما زعموه من بقاء كتبهم سليمة من التحريف والنسخ، وبطلان ما رتبوه على ذلك من وجوب عمل المسلمين بهذه الكتب كعملهم بالقرآن على السواء، لأن غاية ما يفيده هذا التصديق أن القرآن قرر إمكان الوحي ووقوعه، وجاء بحسب وصفه الذي في تلك الكتب، ووافقتها في مقاصد الدين وكلياته، وليس في ذلك ما يدل على عدم تحريفها، أو عدم نسخها، ولا سيما أن القرآن نفسه اشتمل على ما يفيد هذا التحريف وذلك النسخ. والحق أن المفهوم من سياق هذه الآيات أن التصديق كان لثبوت صحة نزولها من الله فقط، لا لبراءة هذه الكتب، ولو لزم من التصديق وجود مصدق به للزم من تصديق الرسل وجودهم حين التصديق، وهذا فاسد[85].

ثانياً: هيمنة القرآن على الكتب السماوية السابقة:

وكما جاء كتاب الله مصدقاً للكتب السماوية جاء أيضاً مهيمناً عليها، والهيمنة تعنى الأمانة والشهادة والرقابة على الكتب السابقة، فما وافق منها القرآن فهو الحق، وما خالفه منها فهو باطل، يقول رشيد رضا.[86] في تفسيره المنار: "وأما قوله ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[87] فمعناه أنه رقيب عليها، وشهيد بما بينه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها، لأنه جاء بعدها".[88] أما

أبن كثير فيقول: " فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فالقرآن أمين وحاكم وشاهد على كل ذلك كتاب قبله، وجعل الله هذا الكتاب العظيم آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات كمالاً ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها وتكفل بحفظه بنفسه"[89].

لقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بشريعة هي خاتمة الشرائع، كما هو خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم، فكانت شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، جامعة لمحاسنها، مصدِّقة ومكملة لها، فنبوة النبي(ﷺ) وشريعته امتداد لجميع الشرائع السماوية التي قبلها، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على وحدة المصدر في الشرائع، وذلك لكونها جميعاً من عند الله سبحانه وتعالى، كما أكد على الاتفاق في الكليات الشرعية، فقال –عليه الصلاة والسلام–: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)[90].

وكانت مهمة القرآن رد الناس إلى الحق الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتبين الحق فيما اختلف فيه بسبب التحريف والتبديل الذي قام به أهل الكتاب في كتبهم، فلا غرو أن يتفق القرآن مع تلك الكتب المنزلة، ويوجد فيه ما يوافق ما بين أيدي أهل الكتاب، وليس ذلك سرقة لمعلومة من قوم، ولا استعانة بعلمهم، وإنما هو تأكيد على وحدة المصدر والمرجعية.

ويتميز معنى الهيمنة من معنى التصديق يكون الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصول شرائعها، بل تتعدى ذلك، فتبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيف وفساد، وبهذا تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمعناها إذا أتم وأشمل من معنى التصديق.

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[91] ورقيباً على سائر الكتب، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات، وقرئ: ومهيمنا عليه بفتح الميم أي: هُو مِنَعليه، بأن حُفِظَ من التغيير والتبديل، كما قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[92] والذي هيمن عليه الله –عزوجل– أو الحفاظ في بلد. لو حرف منه أو حركة أو سكون لنتبه عليه كل أحد، ولا اشمأزوا رادَّين ومنكرين.[93]

ومن جانب آخر يوكد الدكتور دراز: أن القرآن أضاف إلى صفة التصديق صفة أخرى، إذ اعلن أنه جاء أيضاً ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾[94] على تلك أي حارسا أمنيناً عليها... ومن قضية الحراسة الأمنية على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأبيد ما خلده التاريخ فيها من حق وخبير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب"[95].

وتتجلى مظاهر هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية في كونه أخبر بتحريف هذه الكتب وبتبديلها، وأنها لم يبق على ما كان مفروضاً فيها من الثقة بها وأحقية كل ما فيها. بل تناولتها أيدي أهل الكتاب الآثمة بالتحريف والتبديل، وتنالوا ما بقي منها بالتأويل الفاسد، طبقاً للأهواء والشهوات، أو متابعة لذوي السلطان، أو محاولة لكسب الجدل على أعدائهم وخصومهم، بل أخبر القرآن كذلك بأنهم كتبوا الكتب بأيديهم ونسبوها إلى زوراً وبهتاناً.

ومع التحريف والتبديل هناك وسائل أخرى ذكرها القرآن، لا تقل خطورة في تأثيرها عن التحريف والتبديل، وإن كانت لا ترتفع إلى درجة التحريف والتبديل فيما يتعلق بما تحدثه في النص من تغيير، فأصحاب هذه الوسائل آثروا عدم التلاعب بالنص، أو الاقتراب منه بالتغيير فيه، ولكنهم اكتشفوا وسائل أخرى، تحقق الغرض المنشود من دون إلحاق أي تغيير في النص الأصلي، ومن هذه الوسائل يذكر القرآن ما يلي: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ۞ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[96].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ۞ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[97].

وفي الكتمان يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[98] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[99].

ويقين في إلباس الحق بالباطل: يتضح من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[100] وقول تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[101].

وكذلك في الكذب والتكذيب يقول تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۞ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[102].

أما التعطيل: فإنه تعطيل أحكام التوراة والإنجيل وعدم إقامتها كما يتضح من قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾[103] ويقول أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[104]. ويعد الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[105].

تبيّن لنا مما سبق أن القرآنَ مصدقٌ لما بين يديه من كتب الله، كما كان شأن غيره من هذه الكتب، يصدّق اللاحقُ منها ما سبَقه ويؤيّده؛ فالإنجيل مصدّق ومؤيّد للتوراة، والقرآن الكريم مصدّق ومؤيّد للتوراة والإنجيل ولكلّ ما بين يديه من كتب الله بالمعنى الذي قرّرناه آنفًا، فليس المراد إذًا بهذا التصديق الشهادة بأحقيّة كلّ ما انتهى إليه من هذه الكتب، كما زعم ذلك خصومُ الإسلام وأعداؤه؛ لأن هذه الكتب قد تناولتها الأيدي الآثمة بالتحريف والتبديل، والحذف والإضافة، فزالت الثقةُ بها، وانقطعت أو كادت تنقطع صلتها بالوحي السماوي، والتبس الحقُّ النازل من عند الله بباطل أهل الكتاب وزيفهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[106].

ومن أجل ذلك جاء هذا الكتابُ العزيزُ مهيمنًا على تلك الكتب، فيقرّ منها ما هو حقّ وينفي ما عداه، وفي ذلك يقول ربنا –جل في علاه–: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[107] أي: إنّ القرآنَ أمينٌ وشهيدٌ ورقيبٌ على تلك الكتب، فما وافقه منها فهو حقّ وما خالفه منها فهو باطل.

قال صاحب المنار: وأمّا قوله (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد بما بيّنه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن مَن خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها؛ لأنه جاء بعدها.[108]

ويقول ابن كثير: «...وهذه الأقوال كلّها متقاربة المعنى، فإنّ اسم المهيمن يتضمّن هذا كلّه، فالقرآن أمين وحاكم وشاهد على كلّ كتاب قبله، وجعل اللهُ هذا الكتاب العظيم آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات كمالًا ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها، وتكفّل بحفظه بنفسه»[109]

علاقة الهيمنة بالتصديق:

لعلّنا –في ضوء ما تقدّم– نستطيع أن نقرّر أن مفهوم الهيمنة أتم وأشمل من مفهوم التصديق؛ لأن الهيمنة لا تقتصر على مجرّد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصول شرائعها، بل تتعدّى ذلك فتبيّن ما اعتراها من نسخ أو تحريف وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن بذلك مهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب وشاهد بكونها من عند الله، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق، ولكنه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف، وتسرّب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنة عن التصديق، فمفهومها إذًا أتم وأشمل من مفهوم التصديق.

ولقد نقل القرطبي في تفسيره: أن بعض العلماء قد فسروا الهيمنة بالتصديق، ونقل الآلوسيّ مثله، واستدلّ هؤلاء على ما ذكروه من تفسير الهيمنة بالتصديق، بقول الشاعر:

إنّ الكتاب مهيمن لنبينا.. والحقّ يعرفه ذوو الألباب.

ثم قال الآلوسي: والعطف حينئذ للتأكيد، أي: عطف(وَمُهَيْمِنًا) على(مُصَدِّقًا)[110]

ولكني أرجّح ما ذكرته أولًا: لأن تفسير الهيمنة بالتصديق وإنْ كان مسلَّمًا لغةً إلّا أنّ قَصْرَ الهيمنة على مجرّد التصديق تحكُّمٌ محض؛ إذْ هي –على ما بينّا– ليست تصديقًا فقط، ولا شهادةً لهذه الكتب فحسب، بل هي تصديق لما بقي من أصلها، وتكذيب لما عَداه، وشهادة لها بصحة إنزال أصولها، وعليها بالتحريف والتبديل؛ وبذلك يكون العطف للتأسيس لا للتأكيد.[111] يقول الدكتور محمد عبد الله دراز –رحمه الله– بعد أن فسَّر الهيمنة بالحراسة الأمينة: «ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب أن لا يكتفي الحارس بتأييد ما خلّده التاريخ فيها من حقّ وخير، بل عليه –فوق ذلك– أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حقّ، وأن يبرز ما تمسّ إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أُخفيت منها، وهكذا كان من مهمّة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدّعي وجودها في تلك الكتب: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[112]، كما كان من مهمّته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها»[113].

وَصْفُ القرآنِ العظيم بأنَّه مُهيمنٌ ومُصدِّقٌ لكتب الله يقتضي أنه:

أولاً: مُسيطِرٌ عليها: بمعنى أنه الحاكم والقاضي عليها، فهو الذي يكبح جِماحَها إذا جنحت إلى الغلو والباطل لتحريف أصحابها فيها؛ كما قال تعالى – رَدّاً على ما زعمه النَّصارى في المسيح وأُمِّه:﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[114].

ثانياً: رقيبٌ عليها: بمعنى أنه المصحِّحُ لأخبارها، الممحِّصُ لحقائقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[115] وذلك ردّاً على ما يزعمه النصارى أنه عليه السلام قُتِلَ فوق الصَّليب، فكان القرآن رقيباً على ذلك، فأوضح في الآية المتقدِّمة أن هذا الخبر الذي ألحقه النصارى زوراً وبهتاناً بالإنجيل المحرَّفِ، من مزاعمهم، وليس مما أُنزل على –عيسى عليه السلام–.

ثالثاً: حفيظٌ عليها: وهو قريب من المعنى الثاني.

رابعاً: شهيدٌ عليها: بمعنى أنه يشهد لها بالصِّحة والثَّبات، فيقرر أصولها، ويشهد بما فيها من الحقائق.

خامساً: أمينٌ عليها: بمعنى أن ما أَخْبَرَ به عنها، أو أنه فيها فهو الحقُّ، وما عداه مِمَّا زعمه أهلُها فباطل لا يُصدَّق. قال ابن جُرَيج: «القرآن أمينٌ على ما قبله من الكتب، فما أَخْبَرَ أهلُ الكتاب عن كتابهم، فَإِنْ كان في القرآن فصدِّقوا، وإلاَّ فكذِّبوا.

سادساً: مُعْتَرِفٌ بصدقها: بمعنى أنه مُعْتَرِفٌ بأنها من عند الله تعالى، أنزلها على رسله عليهم السلام معترف بما فيها من العقائد الصحيحة، والكليات التي لا يختلف عليها العقلاء؛ كَحُبِّ الخير، والأمرِ بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامةِ العدل، وإحقاقِ الحقِّ إلى غير ذلك.

سابعاً: مُقَرِّرٌ لها على ما جاءت به من الحق: بمعنى أنه لا ينازعها فيما جاءت به من الحق في العقائد، والأخبار، وغيرها.

ثامناً: دالٌّ على صِدْقِها: بمعنى أنه هو الدليل على أَنَّ هذه الكتب من عند الله، وعلى أنَّ أخبارها الصَّحيحة حقَّة، ذلك أنَّ الكتبَ السابقة جاءت – مثلاً – بأوصاف نبيِّنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وأوصاف أُمَّتِهِ، وبَشَّرت بمبعثه(ﷺ).

فجاء القرآن العظيم مصدِّقاً بما أخبرت به هذه الكتب، ومطابقاً لهذه الأوصاف، فدلَّ ذلك على صِدْقِ هذه الكتب فيما أَخبرت به في هذا المجال، وصِدْقِ كونها من عند الله تعالى، والمتأمِّلُ في هذه المعاني المتقدِّمة يلحظ أنَّ بعضها يقترب من بعض، إلاَّ أنها كُلَّها وأكثَرَ منها وردت فيها نصوصٌ كثيرة من القرآن العظيم تفيد أنه تصديق، أو مُصَدِّقٌ لما تقدَّمَهُ من كتب.

وهيمنة القرآن الكريم على سائر الكتب السَّماوية إنَّما تعود إلى سلامة النَّص القرآني من التَّحريف أو التَّبديل أو الزِّيادة أو النُّقصان، حيث تكفَّل الله تعالى بحفظه دون سائر الكتب، وإنَّما أَوْكَلَ حفظَها إلى البشر فوقع فيها التَّحريف والتَّبديل والزِّيادة والنُّقصان، فجاء القرآن مهيمناً عليها، مبيِّناً ما فيها من حقٍّ، وما طرأ عليها ممَّا هو دونه.

ولقد تعلَّق بهذه الآيات أو بعضِها أعداءُ الإسلام وخصومُه، فزعموا أنها تعني سلامة الكتب السَّابقة من التَّحريف والنَّسخ، وأن ذلك يستتبع وجوبَ العمل بهذه الكتب؛ كالقرآن سواء بسواء.

تَصْدِيقُ القرآن لِمَا سَبَقَهُ من كتب الله:

بالإضافة لِمَا تقدَّم ذكره، يكون تصديق القرآن العظيم لِمَا سبقه من كتب الله، من جهات متعددة:

الجِهَةُ الأُولى: أَثْبَتَ أنه الوحي، وقَرَّرَ إمكانية وقوعه فِعْلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[116] فهذا تصديقٌ لأصل الوحي وللرِّسَالات السابقة، وبذلك يكون القرآن مُصَدِّقاً لما بين يديه، كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[117].

الجِهَةُ الثانية: أنَّ القرآنَ العظيم جاء حَسبَ وَصْفِه الموجود في تلك الكتب، حيث اشتملت على وَصْفِ خاتم الرسل، وأنه يأتي بكتابٍ من عند الله تعالى، فنزول القرآن على وِفْقِ هذه النعوت تصديقٌ لهذه الكتب.

الجِهَةُ الثالثة: أنَّ القرآنَ العظيم وافَقَ الكتبَ السَّابقة في مقاصِدِ الدِّين، وأصولِه، والتي لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، ومن هنا نَلْحَظُ اتِّفاقَ القرآن مع غيره من كتب الله فيما يلي:

1- الدَّعوة إلى الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وما يتَّصل بذلك من تنزيه الله تعالى عن النقائص، وَوَصْفِه بكلِّ كمالٍ يليق بذاته المقدسة.

2- تَتَّفق الكتب المُنَزَّلة كذلك في: أصول الشَّرائع؛ كالصَّلاة، والصِّيام، والزَّكاة... حيث أَخْبَرَ القرآنُ العظيم أنَّ الله عزّ وجل تعبَّدَ بها مَنْ قَبْلَنا فقال في الصَّوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[118].

وقال تعالى في الصَّلاة والزَّكاة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[119].

ومن هنا نلحظ أنَّ أصولَ الشرائع واحدةٌ في جميع الأديان والرسالات السماوية، كما صَرَّحَ بذلك قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[120]، وأمَّا تفصيلات الشَّرائع العَمَلية، فتختلف فيها الكتب السماوية، اختلافاً يتلاءم مع زمان كُلٌّ منها، ويتَّفقُ مع مصالح أتباعِها، مِصداقُ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[121].

3- تَتَّفِقُ الكتب المنزَّلة كذلك في الدعوة إلى الفضائل، والترغيب فيها، والترهيب من الرذائل والتنفير منها، فَكُلُّ كُتُبِ الله أمرت بالعدل، والإحسان، والصِّدق، والصَّبر، والأمانة، والوفاء، والرَّحمة، وما إلى ذلك من الفضائل، ومكارم الأخلاق التي تسعد بها البشرية في كل زمان ومكان، وكل كتب الله كذلك نهت عن الظُّلم، والخيانة، والكذب، والغدر، والقسوة، وما إلى ذلك من الرذائل التي تُورِدُ البشريةَ مواردَ الهلاك، ويشهد لذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[122]، وقال تعالى أيضاً -في حَقِّ إبراهيمَ وإسحاقَ وإسماعيلَ ويعقوبَ- عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[123].

الجِهَةُ الرابعة: من جهات تصديق القرآنِ لِمَا سبقه من الكتب، أَنَّ الله تعالى قد جَمَعَ فيه ما تَوَزَّعَ في هذه الكتب من الفضائل، فأنقَذَ بذلك أصولَ مَنْ سَبَقَهُ مِنْ كتب الله، وحَفِظَه، وصَدَّقَه، فهذا القرآن العظيم هو خُلاصةٌ كاملة للرسالات الأُولى، وللنَّصائح التي بُذِلَتْ للإنسانية من فجر وجودها، وهذا مِنْ أَوضَحِ وأَبْيَنِ مظاهر عظمة القرآن

هَيْمَنَةُ القرآن على ما سَبَقَهُ من كتب الله:

وكما جاء القرآن العظيم مُصَدِّقاً لِمَا قَبلَه مِنْ كتب الله، فقد جاء كذلك مهيمناً عليها، كما صَرَّحَ بذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[124] فمعناه أنه رقيب عليها، وشهيد بما بينه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقى منها وتأويله، والإعراض عن حكم والعمل بها، فهو يحكم عليها، لأنه جاء بعدها..[125]. أو على معنى أنه أَمِينٌ عليها، فما أخبر عن صِدْقِه مما ورد فيها صُدِّقَ، وما أخبر بزيفه فهو باطل، أو على معنى أنه الحافِظُ لها، فهو الذي حَفِظَ ما فيها من التوحيد، وَكُلِيَّاتِ الدِّينِ إلى يوم القيامة.

أو على معنى أنه دَالٌّ على صدقها، أي: هو دليل على أنها من عند الله؛ لأنه جاء كما نَعَتَتْهُ هذه الكتب وهيمنة القرآن -أيضاً- تعني: السَّيطرة والقوَّة، فأبطَل القرآنُ العملَ بما في الكتب السَّابقة، وأوجبَ على أتباعها متابعتَه والدُّخولَ تحت رايته، مُعلناً سيطرته وهيمنته عليها.

قال ابن كثير –رحمه الله–: «وهذه الأقوال كُلُّها متقاربة المعنى، فإن اسم(المهيمن) يتضمن هذا كلَّه، فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جَعَلَ اللهُ هذا الكتابَ العظيم، الذي أنزله آخِرَ الكتب وخَاتَمَها، أشْمَلها وأعْظَمَها وأحْكَمَها، حيث جَمَعَ فيه محاسِنَ ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً، وأميناً، وحاكماً عليها كلها، وتكفَّلَ تعالى بِحِفْظِه بنفسه الكريمة"، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(126).(127).

الخاتمة:

لقد تبين من هذا العرض لموقف الإسلام من الأديان الأخرى بصفة عامة أن الإسلام يراعي وجود الآخرين، الذين لهم اعتقاد غير اعتقاد المسلمين.

- الإسلام يقر بكيان كل الأديان أفراداً ودولاً، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(128). وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(129). ولا سبيل مع غير المسلمين إلا الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، والمعاملة القائمة على العدل.
- موقف الإسلام من الديانات الحاضرة الموجودة الآن هو أن فيها ما هو صحيح منزَّل من الله، وما هو غير منزّل من الله اخترعها أصحابها من أنفسهم اتباعاً لهواهم، فما هو صحيح من تعليماتهم. فالقرآن يصدقها ويؤيدها لما بقي من أجزائها الأصلية، وهذا هو موقف الإنصاف والتبصير الذي يطلب من الإنسان أن لا يقبل أي أمر جزافاً، ولا ينكره جزافاً، وأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة في قبوله ورده.
- كما إن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي، وإن علاقة بها في صورتها المنظورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها، وهذا الموقف للإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية.
- وكما يترتب على ما تقدَّم من هيمنة القرآن على ما بين يديه من كتب الله، أننا لا نقبل من هذه الكتب التي وصلت إلينا إلا ما جاء القرآنُ مصدقًا له، فكلّ رواية صدّقها القرآنُ فهي مقبولة ويجب علينا تصديقُها يقينًا، وكلّ رواية كذّبها القرآن فهي مردودة يقينًا

ويجب علينا تكذيبُها كذلك، وما سَكت القرآن عن تصديقه أو تكذيبه، لا نصدّقه ولا نكذّبه، بل نسكت عنه؛ لأن القرآن الكريم –كما أسلفنا– هو الحَكَم والمهيمن على كلّ الكتب السابقة.

الهوامش:

1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبى العباس بن تيمية، ت، خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر القاهرة، 2000،ص1/ 205.
2) سورة آل عمران، الآيات 1–3.
3) سورة المائدة 48.
4) سورة النساء، آية 47،
5) سورة البقرة آية 133.،136
6) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون في وجوه التأويل، أبى القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي ، م/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، الفجالة، 1/ص180.
7) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المرجع السابق،1/ ص 49.
8) سورة البقرة، آية 136، 137.
9) سورة البقرة، آية 285.
10) سورة النساء، آية 153،150.
11) سورة البقرة ، آية 253.
12) سورة الأسراء ، آية 55.
13) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مرجع سبق الذكر، ص 207
14) سورة يونس، آية 72.
15) سورة البقرة، آية 132.
16) سورة البقرة، آية133
17) سورة البقرة آية 128
18) سورة يونس آية 84
19) سورة آل عمران آية 52
20) سورة القصص آية 53

21) سورة البقرة، آية 136.
22) سورة الشورى، آية 13.
23) سورة المائدة، آية 48.
24)أخرجه محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي في صحيحه، (بيروت، ط1، دار طوق النجاة،1422هـ)، كتاب الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها) 167/4. ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد".
25) سورة الأنبياء، الآية 25.
26) سورة النحل، الآية 36.
27) سورة المائدة، الآية 24.
28) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتاب المصرية، ط2، 1964م، 6/ 211.
29) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب خاتم التبيين، ج4، ص186.
30) سورة الأنبياء، آية92.
31) محمد عبدالله دراز: هو عالم من اعلام مصر، ولد عام 1894م، في قرية "محلة دياي" بمحافظة كفر الشيخ، وانتسب إلى معهد الإسكندرية الديني عام 1905م، وتوفي عام 1958م، وهو علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام، وامتازت كتاباته–رحمه الله– بعمق وأصالة، وأفكار نابضة بالحياة، جمعت بين علوم الدين ومعارف الدنيا، كل ذلك في أسلوب سلس رصين وتشتمل أعمال الدكتور دراز على مجموعة قيمة من الكنب والبحوث منها: التعريف بالقرآن، الأخلاق في القرآن، الدين، النباء العظيم، وكثيراً من البحوث ذات الصلة .
32) د. محمد عبدالله درز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ،الكويت، دار القلم، ص 175،176.
33) سورة البينة ، آية 5.
34) خلاف، عبدالوهاب، ت: علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع، مصر ، مطبعة المدني، ص 16.

35) سورة الشعراء، الآية 214.
36) سورة الشورى، الآية 7.
37) سورة، الأعراف ، الآية 158.
38) سورة آل عمران، الآية 64.
39) منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، د. نادية الشرقاوي، دار النشر، صفحات، سنة 2010، ص15، 18.
40) سورة النساء، الآية 82.
41) سورة محمد، الآية 24.
42) الله: كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، محمود عباس العقاد، دار المعارف، مصر، ط6، ص 224،223.
43) منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، نادية الشرقاوي، مرجع سبق الذكر، ص20.
44) سورة الفرقان، الآية 44.
45) الدين، د. محمد عبدالله درز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ،الكويت، دار القلم، ص 177.
46) سورة المائدة، آية 46-48.
47) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، ت:أحمد محمد شاكر، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000،ج10،ص377.
48) أحكام القرآن، أحمد بن أبوبكر الرازي الجصاص الحنفي، ت: محمد صادق القمحاوي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج4، ص97.
49) مفاتيح الغيث، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الملقب بفخر الدين الرازي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3،ج12،ص371.
50) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج6، ص221.

51) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد السيد الطنطاوي، القاهرة دار نهضة مصر، ط1، 1997م، ج4، ص180.

52) سورة آل عمران: آية49- 50.

53) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، ، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1989م،ج5، ص 238.

54) سورة الأعراف، آية 157.

55) الوصايا العشرة في الكتاب المقدس: 1- أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرضمن بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أُخرى أمامي. 2- لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من نحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن. 3- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، 4- احفظ يوم السبت لتقدسه كما أوصاك الرب.5- أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك. 6- لاتقتل7- لا تزن 8- لا تسرق9- لا تشهد على قريبك شهادة زور.10- لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أَمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك. الكتاب المقدس، أي العهد القديم والعهد الجديد، السفر تثنية 4،5 ،تصدرها دار الكتاب المقدس في مصر، ط6، 2009، ص 214.

56) سورة البقرة، الآية 106.

57) الدين، عبدالله محمد دراز، مرجع سبق الذكر، ص180.

58) سورة المائدة، الآية 48.

59) الدين، عبدالله محمد دراز، مرجع سبق الذكر، ص181.

60) نفس المرجع السابق، ص 182،181.

61) هو عالم اجتماع أمريكي، كما درس كولي علم الاجتماع والاقتصاد في جامعة ميشغان، وكان كولي عضو هيئة تدريس ومؤسس فيها.، وهو من أبرز المستشرقين ضد الإسلام. .توفي كولي بمرض السرطان، وكانت مرحلة الطفولة لكولي صعبة بسبب بعده عن والديه حيث عانى من أمراض نفسية وجسمية وسببت له مشاكل في النطق في مرحلة الطفولة.

62) http://darululoom-deoband.com/arabic/articles/tmp/ يوم الأحد/ ساعة الدخول 3:55 ظهراً. الموافق 20023/1/15.

63) هو سفير ومستشرق فرنسي، شغل منصب السفير الفرنسي لدى الفاتيكان من 1608 إلى 1614 م. أسس سنة 1613 م، مطبعة للحروف العربية في رومة.

64) https://almerja.net/reading.php?idm=110015 . يوم الأحد/ ساعة الدخول 7:58مساءً، الموافق 2023/1/15م.

65) سورة الفرقان، الآية 52.

66) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، محمد ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، ج19،بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. السنة، 2000م، 19: 281.

67) سورة فصلت، الآية 33.

68) حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية وحمايتها الجزائية وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، محمد علي مسعود، ، رسالة ماجستير، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية بالرياض، 2003م، ص73- 113.

69) سورة آل عمران، الآية 104.

70) سورة العصر، الآيات 1، 3.

71) حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام، الرياض، صالح بن حسين العابد، وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط4، 2008م، ص13-74.

72) منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، د. نادية الشرقاوي، مرجع سابق الذكر، ص30. .

73) سورة آل عمران، الآيات 1-4.

74) سورة الأنعام، الآية 92.

75) سورة يونس، الآية 37.

76) سورة الانعام، الآيات، 91،92.

77) سورة الاحقاف، الآية 9.

78) سورة الأعراف، الآية 157.

79) سورة البقرة، آية 83.
80) سورة المائدة، الآية 48.
81) سورة الأنبياء، الآية 73.
82) سورة الأعلى، الآية 19.
83) سورة آل عمران، الآية 93.
84) سورة آل عمران، الآية 81 .
85) منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى ، د. نادية الشرقاوي، ، مرجع سبق الذكر. ص 33.
86) محمد رشيد رضا، ولد 1865، هو مفكراً إسلامياً من رواد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وكان صحفياً وكاتباً وأديباً لغوياً، وهو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده. أسس مجلة المنار، توفي 1935م.
87) سورة المائدة، الآية 48.
88) تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، ط2، ج6، 1981م، ص410،411.
89) مختصر تفسير ابن كثير، ت، واختصار محمد على الصابوني، نقلا عن د. نادية الشرقاوي، دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1981م، ج1، ص 524.
90) سنن الترميدي، كتاب الفرائض 2238، 6:410-411، يوم الأحد، الموافق 2022/12/12م/ ساعة الدخول: 10:20 دقيقة ليلاً. https://salafcenter.org/269
91) سورة المائدة، الآية 48.
92) سورة فصلت الآية، 42.
93) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون في وجوه التأويل، أبى القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي ، م/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، الفجالة، 1/ص180.
94) سورة المائدة، الآية 48.
95) الدين، محمد عبدالله دراز، مرجع سابق الذكر، ص181.
96) سورة الأنعام، الآية 91،92.

97) سورة المائدة، الآية 15،16.
98) سورة البقرة، الآية 146.
99) سورة آل عمران، الآية187.
100) سورة آل عمران، الآية 71.
101) سورة البقرة، الآية 42.
102) سورة آل عمران، الآية 93،94.
103) سورة المائدة، الآية 66.
104) سورة المائدة، الآية 68.
105) سورة البقرة، الآية 85.
106) سورة آل عمران، الآية 71.
107) سورة المائدة .الآية 48.
108) https://tafsir.net/article/5412/tsdyq-al-qr-aan-al-krym-llktb-as-smawyt-whymnt-h-alyha يوم الأحد، الموافق 2022/12/12م/ ساعة الدخول: 10:40 دقيقة ليلاً
109). تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، ط2، ج6، 1981م، ص410،411.
110) تفسير القرطبي (4/ 2207)، والآلوسي (6/ 152).
111) https://tafsir.net/article/5412/tsdyq-al-qr-aan-al-krym يوم الأحد، الموافق 2022/12/12م/ ساعة الدخول: 10:45 دقيقة ليلاً
112) سورة آل عمران، الآية 93.
113) الدين، د. محمد عبدالله درز، مرجع سابق الذكر، ص178..
114) سورة المائدة، الآية75
115) سورة النساء، الآية 157.
116) سورة النساء، الآية 167.
117) سورة آل عمران، الآية 3.
118) سورة البقرة، الآية 183.

119) سورة البقرة، الآية 101.
120) سورة الشورى، الآية 113.
121) سورة المائدة، الآية 48.
122) سورة البقرة، الآية 83.
123) سورة الأنبياء، الآية 73.
124) سورة المائدة، الآية 43.
125) منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى، د. نادية الشرقاوي، مرجع سابق الذكر، ص33.
126) سورة الحجر، الآية 9.
127) https://www.alukah.net/sharia/0/1 يوم الأحد، الموافق 2022/12/12م/ ساعة الدخول: 11:00 ليلاً.
128) سورة الكافرون ،الآية6.
129) المائدة، آية 48